

الواضح في علم اللغة

أ.د: خميس فزاع عمير

المجاج اللساني

•**الْحَاجُّ، الْقَصْدُ؛ حَجَّ إِلَيْنَا فَلَانٌ؛ أي: قَدِمْ وَحَجَّتْ فَلَانًا وَاعْتَدْتُهُ؛ أي: قَصَدْتُهُ، وَرَجُلٌ مَحْجُوجٌ؛ أي: مَقْصُودٌ.**

•**الْحَجَّةُ:** البرهان، وقيل: الحجة ما دُوفع به الخصم، وال**الْحُجَّةُ:** الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، وجمع الحجة: حجج وجاج، وال**الْحَجَّةُ:** الدليل والبرهان.

•**التحاجُّ:** التخاصُّم، و**حَجَّهُ** مُحَاجَّةً و**جِاجَّا**: نازعه الحجة، والرجل المُحْجَاجُ: هو الرَّجُلُ الجَدِيلُ.

•**الاحتاجُّ:** احتج بالشيء: اتَّخَذَهُ حَجَّةً.

ممَّا يُبَرِّزُ أَنَّ لفظَةَ الحجاج أو المحاجةَ تَسْتَقِي مَعَاهَا الأَسَاسِيُّ مِنَ الظَّفَرِ وَالتَّخَاصُّمِ وَالْجَدِيلِ الَّذِي يَقْتَضِي التَّحاجُّ وَالتَّخَاطُبُ، الَّذِي تَتَحَقَّقُ مِنْ خَلَالِهِ الْعَمَلِيَّةُ الْحِجَاجِيَّةُ التَّوَاصِلِيَّةُ.

وإذا كانت اللغة هي وسيلة التواصل المثلثي، فإن الحجاج هو شكل من أشكال هذا التواصل، وحالة من حالاته التي يسعى فيها المتكلم إلى التأثير على السامع بجلب انتباذه أولاً وإقناعه وكسب تأييده، أو إفحامه وغلوته... وانطلاقاً من هذا المفهوم يمكن أن ندرك سمات النص الحجاجي، فهو نص "يسعى إلى الإقناع، ويقدم البراهين التي تسمح لفكر ما أن يعلو على فكر أو غلبة موقف على موقف، أو رأي على رأي".

ولا شك أن الحجاج - مثله كمثل أي عملية تواصلية - لا يمكن أن يتم وتحدد طبيعته إلا في ضوء المعطيات التي يتضمنها السياق أو المقام.

ولقد كان للحجاج حضوره في البلاغة العربية التي شكل البرهان والإقناع أحد أهم مباحثها، ويمكن القول إن البلاغة العربية ظل يتجاذبها جانبان أساسيان هما جانب التواصل والإبلاغ، وجانب الفن والجمال؛ الدلالة والإبلاغ بما يعنیانه من دقة و مباشرة

وضوح وإقناع، والفن والجمال بما يفرضانه من غموض وتخيل وإمتاع.

وأول ما يبرز أمامنا من ظواهر بعد الحجاجي للبلاغة مانجده في ثانياً تعريفاتها من إشارة إلى جانب الحجة والإقناع، أو الغبة والإفحام، فابن المفعم يجعل الاحتجاج وجهاً من أوجه البلاغة وحالة من حالاتها، حين سئل ما البلاغة؟ فقال: "البلاغة اسم جامع لمعانٍ تجري في وجوهٍ كثيرة، فمنها ما يكون في السُّكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جواباً، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون شرعاً، ومنها ما يكون سَجْعاً وخطباً، ومنها ما يكون رسائل".

وقيل لخالد بن صفوان: ما البلاغة؟ قال: إصابة المعنى، والقصد إلى الحجة" فالحجة هنا وسيلة من وسائل الحاجج وأالية من آياته.

وفي حديث الجاحظ عن البلاغة نلمس تركيزه على جانب الحجة والإقناع بقوة تقاد توادي جانب الفن والتخيل؛ من ذلك قوله: "وكانوا يمدحون شِدةَ العَارِضَةِ، وقوَةَ المُتَّهِمِ، وظُهُورَ الْحُجَّةِ، وثباتَ الْجَنَانِ، وكثرةَ الرِّيقِ، والعلوُّ علىَ الْخَصْمِ؛ ويُهْجُونَ بِخَلْفِ ذَلِكِ".

ومن أهم الظواهر الدالة على بعد الحجاجي في البلاغة العربية تلك المصطلحات التي يغلب عليها طابع البرهان والحجاج والإقناع، فهذه المصطلحات تركز على الحجة والإقناع أكثر من تركيزها على الفن والإمتاع، وفيما يأتي عرض لأبرز هذه المصطلحات:

الاحتجاج: وهو لون من ألوان الكلام عند جماعة منهم ابن قيم الجوزية وسماه الزركشي إلحاد الخصم بالحجفة، وسماه بعض البلاغيين "المذهب الكلامي"، وحقيقة احتجاج المتكلم على خصمه بحجفة تقطع عناده وتوجب له الاعتراف بما ادعاه المتكلم وإبطال ما أورده الخصم، وسمي المذهب الكلامي لأنه يسألك فيه مذهب أهل الكلام في استدلالهم على إبطال حجج خصومهم.

وقد تحدث العسكري في كتاب الصناعتين عن وضوح الدلالة وقرع الحجة وجعل منه قوله تعالى: (وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه

قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييه الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق علیم، فهذه دلالة واضحة على أن الله تعالى قادر على إعادة الخلق مستغنية بنفسها عن الزيادة فيها، لأن الإعادة ليست بأصعب في العقول من الابتداء.

الاستدلال: الاستدلال هو تقرير الدليل لإثبات المدلول سواء كان ذلك من الأثر إلى المؤثر أو بالعكس وهذا المصطلح - كما هو واضح - مصطلح وثيق الصلة بالجانب الحجاجي المنطقي، وقد ذكر ابن سنان الاستدلال بالتعليق وجعل منه قول أبي الحسن التهامي:

لَوْ لَمْ يَكُنْ رِيقَهُ خَمْرَهُ
لَمَا تَشَنِّي عَطْفَهُ وَهُوَ صَاحِ

وَقُولُهُ:

لَوْ لَمْ يَكُنْ أَقْحَوَانَا ثَغْرَ مَبْسِمَهَا
مَا كَانَ يَزْدَادُ طَيْبًا سَاعَةً السُّحْرِ
وَمِنْهُ: حَسْبُ الْمُحَبِّينَ فِي الدُّنْيَا عَذَابَهُمْ لَا عَذَبَتْهُمْ بَعْدَهَا سَقْرٌ

الإلقاء: الإلقاء هو الاضطرار، وألأه إلى الشيء: اضطرره إليه، وقد عرف المصري الإلقاء بقوله: "هو أن تكون صحة الكلام المدخل ظاهره موقوفة على الإتيان فيه بما يبادر الخصم إلى رده بشيء يلجه إلى الاعتراف بصحته. ك قوله تعالى: (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر) قال تعالى في جواب هذا القول: (لسان الذي يلحدون إليه أعمى وهذا لسان عربي مبين)، فإن للخصم أن يقول : نحن إنما أردنا القصص والأخبار... ظاهر الكلام لا يصلح أن يكون ردًا على المشركين فيقال لهم: هب أن الأعمى علمه المعاني بهذه العبارة الهائلة التي قطعت أطماعكم عن الإتيان بمثلها من علمها له؟ فإن كان هو الذي أتى بها من قبل نفسه كما زعمتم فقد أقررت أن رجلا واحدا منكم أتى بهذا المقدار من الكلام وقد عجزتم بأجمعكم وكل من تدعونه من دون الله عن الإتيان بأقصر سورة.

الاستدراج: ذكره ابن الأثير وقال إنه "مخادعات الأقوال التي تقوم مقام مخادعات الأفعال وقال في تعريف الاستدراج: " هو التوصل إلى حصول الغرض من المخاطب والملاطفة له في بلوغ المعنى المقصود من حيث لا يشعر به" ومثل ابن الأثير لذلك من قصة إبراهيم وحواره لأبيه ٠

وعرف ابن الأثير الحبّي الاستدراج بقوله: "يقال استدرج فلان فلانا إذا توصل إلى حصول مقصوده من غير أن يشعره من أول وهلة" وذكره العلوى في الطراز وأورد شواهد من كلام النبي ﷺ وكلام علي رضي الله عنه وشعر المتّبى ، وذكره ابن القيم في الفوائد وذكر أمثلة عنه ...

مجاراة الخصم: وهو من المصطلحات التي عرفت في علم الجدل، قال السيوطي: "ومنه لـ مجاراة الخصم ليُعثَرَ بـ أَنْ يَسْلِمَ بـ بعض مقدماته حيث يراد تبكيته وإلزامه" كقوله تعالى: (إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مُثْنَانٌ تَرِيدُونَ أَنْ تَصْدُونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آباؤُنَا فَاتَّوْنَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ قَالَتْ لَهُمْ رَسْلَهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مُثْنَكُمْ وَلَكُنَّ اللَّهُ يَمْنُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عَبْدَهُ)، فقوله: (إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مُثْنَكُمْ) فيه اعتراف الرسل بكونهم مصوّرين على البشرية فـ كأنّهم سلموا انتفاء الرسالة عنهم، وليس مراداً بل هو مجاراة الخصم ليُعثَرَ، فـ كأنّهم قالوا: ما دعّيتكم من كوننا بشراً حقّاً لا ننكره ولكن هذا لا ينافي أن يمّن الله علينا بالرسالة.

وليس الحاجاج تمريناً أو عملاً وصفياً أو حكاية حدث معين؛ بل هو مقصود يرومـه صاحـبه عبر التأثـير في الآخر وفي الواقع، والـدفاع عن الفكرة عن طريق الاستدلال العقلي دون إـكراه، بالـبحث عن المعلومات الملائمة وـ سـوقـها كـأـخـبارـ حاجـيـةـ غيرـ عـاديـةـ؛ حيث تكون للقيمة الحاجـيـةـ أـولـويـةـ في الخبرـ الحاجـ.

والـحجـاجـ هوـ "ـتـوجـيـهـ خطـابـ إـلـىـ مـتـلـقـ مـاـ؛ـ لأـجلـ تعـديـلـ رـأـيـهـ أوـ سـلـوكـهـ أوـ هـمـاـ مـعـاـ،ـ وـهـوـ لـاـ يـقـومـ إـلـاـ بـالـكـلامـ المـتـأـلـفـ مـنـ مـعـجمـ الـلـغـةـ الطـبـيعـيـةـ".

وهو مـسـعـيـ يـحاـولـ بـهـ فـرـدـ أوـ جـمـاعـةـ إـقـنـاعـ مـخـاطـبـ بـتـبـيـيـ مـوقـفـ مـاـ؛ـ وـذـلـكـ بـالـاسـتعـانـةـ بـتـمـثـيلـاتـ أوـ حـجـاجـ مـسـتـهـدـفـةـ البرـهـنـةـ عـلـىـ صـحـةـ المـوـقـفـ وـأـحـقـيـتـهـ،ـ وـهـوـ يـقـومـ عـلـىـ تـدـخـلـ مـجـمـوعـةـ مـنـ العـنـاصـرـ:ـ مـنـتـجـوـهـ،ـ وـمـسـتـقـلـوـهـ،ـ وـعـنـدـ الـلـزـومـ جـمـهـورـ أوـ شـهـوـدـ؛ـ لـذـلـكـ فـهـوـ ظـاهـرـةـ اـجـتمـاعـيـةـ.

فـمـحاـولـةـ التـأـثـيرـ وـالـتـحـكـمـ فـيـ الإـنـسـانـ بـوـاسـطـةـ الـلـغـةـ هـوـ مـاـ يـسـمـيـ جـاجـاـ،ـ أـمـاـ التـأـثـيرـ فـيـهـ بـأـدـأـهـ أـخـرىـ غـيـرـ الـلـغـةـ،ـ فـذـلـكـ لـيـسـ جـاجـاـ؛ـ

فتوّجُهُ مدير الأَمْن في الساحة العموميَّة بِخطابه إلى المحتَاجين من أجل الانسحاب، بسبب عرقلة حشودهم لحركة السير وخلقها حالة من البَلْبلَة - هو جَاجٌ، وغايَتُه الإقْفَاع، لكن التلويع بالهراوات أو السِّلاح أو خراطيم المياه هو تهديد مادِّي، وليس جَاجًا.

وفي السياق العلمي تنتفي الضرورة الحجاجيَّة؛ فـأيُّ ظهور للباحث يمكن أن يلاحظ في هذه العبارات:

• الكِرة الأرضية تقوم بـدورتين؛ إحداهما حول نفسيَّها، والأُخرى حول الشمس.

• إنَّ دورة الأرض حول الشمس تستغرق ثلائة وخمسة وستين يومًا.

• كُلُّ إنسان فانٍ، سُقراط إنسان؛ إِذَا سُقراط فانٍ.

والحجاج الخطابي تقريب بين المتكلِّم والمتألِّق، وهو غير الحجاج الجدلي الذي يروم محاولة تخطئة الطرف الآخر، باستعمال البراهين المؤسسة على مقدِّمات وعلاقات ونتائج صوريَّة منطقية؛ فالحجاج الخطابي لا يستعمل البراهين بصورتها الموجوَدة في الحجاج الجدلي البرهاني، كما أنَّ النصوص الخطابيَّة يمكن أن تكون نصوصًا مفتعلة (أو إقناعيَّة)، وليس نصوصًا حجاجيَّة؛ أي: إنَّ كُلَّ نصٍّ حجاجي نصٌّ إقناعي، وليس كُلُّ نصٍّ إقناعي نصًا حجاجيًّا.

وما دام كُلُّ حجاج تواصلاً، فيمكن الحديث عن ثلاثة نماذج تواصلية للحجاجة:

• النموذج الوصلي للحجاجة؛ حيث تُعامل معاملة البناء الاستدلالي المستقل المسؤول عن العناصر، وتكون الحجاجة في هذا النموذج حجَّةً مجرَّدة.

• النموذج الإيصالِي للحجاجة؛ لأنَّه يجعل من الحجاجة فعلًا استدلاليًّا يتوجَّه به المتكلِّم إلى المستمع، وتكون الحجاجة في هذا النموذج حجَّةً موجَّهةً.

• النموذج الاتصالي للحجّة؛ إذ ينظر للحجّة بوصفها فعلاً مشتركاً بين المتكلّم والمستمع، جمعاً بين توجيهه الأول وتقويم الثاني، وتكون الحجّة في هذا النموذج حجّة مقومة.

وغاية الحجاج هي الإفحام والتأثير وإقناع المتأقّي، بصرف النّظر عن صدق الحجّة وصحتها، فليس غايّته البرهنة القطعية الصارمة، ولا الحكم بالصدق والكذب، وبخلاف ذلك؛ فالبرهان قد يكون سليماً، غير أنَّ المتأقّي لا يقنع به، ولا يدفعه للعمل بمقتضاه.

فالآليّات الحاجيّة تتميّز بفعاليّة جدليّة تتجاوز البرهان الصارم والبيّنه الحسابيّة؛ حيث يؤخذ بالتراث والتفاضل، وفي أحيان أخرى بالتناقض، الذي يستسيغه العقل، ويقود للإقناع، بخلاف البرهان الذي يمكن أن يكون دليلاً مستويًا ولا يقنع به المخاطب.

كما حدد بيرلمان لوظائف الحجاج سلماً يتكون من ثلات درجات، وهي:

• الإقناع الفكري الخالص.

• الإعداد لقبول أطروحة ما.

• الدفع للفعل.

ويُعدُّ الحجاج فعلاً لغوياً خاصاً، والجاج بالنسبة لنظريّة الأفعال اللغوية هو إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب؛ أي: متواليات من الأقوال والجمل، بعضها بمنزلة الحجّج، والبعض الآخر بمنزلة النتائج المستنجة منها.

أساليب الحجاج في اللغة العربية للجاج في اللغة العربية عدة أساليب وصور منها:

١- الندوة، فالندوة أحد أشكال وفنون التعبير وتتضمن الحجاج المقرن بالدليل.

٢- الحوار، فالحوار المرتب جيداً والمعدّ له بعناية يعدّ أسلوباً حاجياً.

٣- المحاضرة، والمحاضرة كذلك شكل من أشكال التعبير وفيها قدر كبير من الحاج.

٤- الخطابة، حيث إن الحاج من إحدى عناصرها لأنّها تتعلق بالرد على الباطل والانتصار للحق.

٥- بعض الفنون الكتابية كفن المقالة، فالمقالة تتضمّن إيراداً للحج وتبليغاً لها للطرف أو الجهة المعنية بوصولها إليه، وقد تكون جهة رسمية خاصة، أو عامة أو فكرة يراد إيصالها ونشرها، وتحقيق الاقتناع بها. كذلك المسرحية أحياناً تحمل رسالة وهدفاً حجاجياً معيناً حول قضية معينة سياسية أو تعليمية، أو تربوية، حيث يتم التعبير عنها من خلال مجريات أحداث المسرحية، وكذلك القصة القصيرة والرواية، فيعالج الكاتب بالقصة القصيرة ومجريات أحداثها، والعلاقة بين عناصرها قضية معينة، وإيراد الحجّة والدليل. أما بالنسبة للرواية، فإنّ فرص استخدام الأسلوب الحجاجي فيها أكثر من القصة؛ لتعدد فصولها، وتشعب أحداثها، ثمّ إنّ مطاردة قوى الاحتلال على مر العصور لهذه الأنماط من التعبير ولأصحابها، ما كان إلا لقوّة وبلاغة أسلوبهم الحجاجي في رفض الاحتلال والاستعمار بكلّ أشكاله.